النافِـذة

أخيراً بعد أن لبثت في السجن كل هذه المدة.. أخيراً نلت حريتي (أو هكذا كنت أظن).

صعدت درجات القطار السريع بلهفة، وما أن صعدت حتى اغرورقت عيناي بالدموع... عبرات ساخنة سقطت من عيني من شدة التأثر... وكيف لا أتأثر وقد رأيت وجوه أصدقاءٍ قُدامى في القطار.. حقيقة إنني لا أميزهم بدقة ولكنني أعرفهم ويعرفونني من قبل بالتأكيد، والدليل على ذلك الترحاب الذي قابلوني به.. لقد انقضّوا عليَّ وحملوني بين أذرعهم وسط أصوات من الزغاريد ودق الدفوف.. وحلقات وبرجلات.. وتحرّك القطار.

وما إن تحرك القطار حتى وجدت الجميع يأخذ مكانه المخصص في سرعة كأنهم قد نسوا تواجدي تماماً! نظرت حولي في دهشة باحثاً عن مقعدٍ خالٍ لأجلس فيه، وما إن وجدته حتى أسرعت إليه وجلست.

«أهلاً بك معنا» نظرت إلى مصدر الصوت بدهشة، فوجدت

الرجل الجالس بجانبي يمد إليَّ يده وهو يبتسم في ود فصافحته بحذر وهو يقول: أراك مُتوتراً قليلاً.. أهي المرة الأولى التي تستقل فيها القطار؟

أومأت برأسي موافقاً ثم قلت له:

ـ في الواقع نعم.

ـ ما هي وجهتك؟

ـ المحطة الخامسة....

قال لي وهو يضحك:

ـ يا لحسن حظك فمسافتك قصيرة! أما أنا فسأنزل في المحطة التاسعة...

وما إن وقف القطار تماماً حتى انبعث صوت من داخل القطار يقول: المحطة الأولى.

ثم رأيت محصل التذاكر الخاص بتلك المحطة يدخل القطار ليتأكد من صلاحية تذاكر الراكبين.. رأيته يمشي بين الركاب يزهو وينظر حوله ويسأل الجميع عن تذاكرهم، حتى وصل إلى من كان يجلس أمامي وقال له بخشونة: «لقد انتهت صلاحية تذكرتك فلماذا لم تنزل..». نظر إليه الرجل المسكين بذعر رهيب وهو

obeikandl.com

يشوح بيديه قائلاً: «لا.. ليس هنا..» فما كان من محصل التذاكر إلا أن أمسك بتلابيب الراكب المسكين الذي استسلم له تماماً حتى خرجا من القطار.. ثم تحرك القطار مرة أخرى..

نظرت إلى جاري بدهشة فابتسم إليَّ في غموض فألقيت برأسي ورُحتُ في سباتٍ عميق.. «المحطة الثانية» استيقظت على ذلك الصوت الجهير في فزع وما إن فتحت عيني، حتى وجدت باب القطار يفتح ويدخل منه نفس محصل التذاكر السابق..

بلغ توتري مداه في تلك اللحظة، وركزت حواسي كلها على ذلك المحصل الغريب الذي أخذ يقترب مني شيئاً فشيئاً.. حتى أصبح على قيد أنملة من مجلسي... ابتسمت إليه في خوف فقال لي في صرامة: «تذاكر» أخرجت له تذكرتي فنظر فيها متمعناً ثم نقل بصره إلى جاري وأعطاه ورقة لم أتبين فحواها، ثم انصرف آخذاً معه بعض الركاب خارج القطار..

نظرت إلى جاري وسألته متوددا: كم تبقى حتى المحطة الخامسة؟

قال لي بشرود وهو ينظر من خارج النافذة: ــ الكثير.. ولم يزد..

نظرت بدوري من خارج النافذة فرأيت الأشجار والحقول والمنازل والمنظر برمته يتحرك بسرعة إلى الخلف عكس اتجاه القطار، وتساءلت في نفسي ما الذي ينبغي أن يفعله المرء إن فاتته محطته؟

بعد قليل أخذت سرعة القطار تبطئ، وعندها وجدت بعضاً من الناس ينتفضون من مكانهم ويحزمون حقائبهم ويستعدون للنزول من القطار، وأقاربهم وأحباؤهم يودعونهم باكين، مؤكدين لهم أنهم سيلحقون بهم بعد حين.. نظرت من النافذة مرة أخرى فرأيت محصل التذاكر من ظهره ممسكاً بعض الركاب بيديه ويسيرون نحو الحقول.. ثم.. ثم اختفوا تماماً من النافذة بسبب حركة القطار.. نظرت إلى جاري متسائلاً عن فحوى تلك الورقة التي أخذها من المحصل، ولكنه أجابني بقلق بالغ لم أعهده فيه: ستعرف بعد حين.. ثم تركني لأزداد حيرة وغموضاً فوق غموض...

المحطة الرابعة: ما إن سمعت الصوت حتى فُتح الباب ودخل المحصل وسط سكون الركاب المترقبين الذين أخذوا ينظرون حولهم في هلع بعيون زائغة.. اقترب المحصل مني مرةً أخرى ونظر إلى تذكرتي وقال لي بصرامته الحازمة: لقد اقتربت محطتك. ولم يعطني حتى فرصة لأقول له: إني أعلم ذلك، بل

نظر إلى جاري الذي حاكى وجهه وجوه الموتى من الخوف وأعطاه ورقة أخرى ثم انصرف آخذاً معه بعض الركاب.. الذين أخذ ذووهم في النحيب والبكاء.. لم يتحرك القطار هذه المرة بل فتح الباب مرة أخرى ودلف منه المحصل وأسرع خطاه إلى أن وصل إلى جاري، وقال له بحسم: «أنت مطلوب الآن».. قام الرجل باستسلام تام لم أفهمه وهو المتوجه إلى المحطة التاسعة.. حاولت أن أسأله ولكن هيهات.. كانا قد نزلا من القطار.. فنظرت إلى خارج القطار فوجدته ينظر إليَّ بأمل مشيراً إليَّ في رجاء بأن أبحث عن الورقتين اللتين أخذهما من المحصل من قبل.. تلفتُّ حولي بجنون حتى وجدتهما على أرض القطار و.. وفتحتهما.. وجدت في الأولى ما نصه: «إنذار أخير: لقد اشتعل رأسك شيباً».. ووجدت في الثانية: ما نصه: «إنذار أخير: لقد وهن العظم منك وقد حان دورك».. أطبقت على الورقتين بقوة.. ثم نظرت من خلال النافذة فرأيت الأشجار والحقول ما زالت تتحرك للخلف و.. وبسرعة.. وأدركت أن القطار يتحرك رأساً نحو المحطة الخامسة.. محطتي...